الغرباء

بقلم : نجيب كيلاني

حدث ذلك منذ عشرين عاما ..

كانت مدرستنا الابتدائية فى قرية تبعد عن قريتنا مايقرب من خمسة كيلو مترات ، نقطعها ذهابا وايابا كل يوم سيرا على الاقدام ، كان هذا مرهقا الى حد بعيد ، لكن كثرة عدونا ، وتعودنا على ذلك السفر اليومى ، وشعورنا باننا محظوظون لحصولنا على فرصة التعليم ، كل ذلك خفف من ارهاقنا وآلامنا .. ثم ان لكل شيىء نهاية .. وسياتى يوم ننال فيه الشهادة الابتدائية ، ثم نستقر فى المدينة ، ونودع أيام التعب والشقاء .. وفجأة اصدرت المدرسة قرارا بأن نقيم فى القرية التى بها المدرسة حتى يتيسر لنا الوقت الكافى للمذاكرة ، ولتوفر علينا مشاق الطريق واستقر بنا المقام فى حجرة شبه مظلمة بمنزل متواضع جدا وبأجر زهيد لايكلف الواحد منا أكثر من ثلاثة قروش فى الشهر اذ كنا سبعة تلامذة ، نتراص متجاورين كل مساء على حصيرة واسعة ، تغطى أرض الحجرة الطينية .. ولم يكن يزعجنا فى مسكننا الجديد سوى مرور مدرس الحساب فى أوقات مختلفة ..

كان الرجل قاسيا غاية القسوة .. وكان يهبط علينا كهادم اللذات ، ونحن نسمر فى المساء ، أو نحكى ذكرياتنا ، كى نقطع رحلة ليل الشتاء الطويل ، وننسى آلام الغربة ، فى تلك السن المبكرة اذ كانت أعمارنا تتراوح بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة .. وكثيرا مانجد باب الغرفة يفتح فجأة ، ويطل منه وجه «نصيف افندى» مدرس الحساب . وفى يده خيزرانه ملساء ثقيلة يعرفها الجميع ، وعلى عينيه منظار زجاجى شفاف ، تتسرب من خلاله نظرات صارمة تزرع فى قلوبنا الفضة رعبا هائلا ، ولم يكن يفتح الباب الا بعد أن ينصت الى حديثنا الفارغ بضع دقائق كالجاسوس .. وعندما نصطدم بمرآه ننهار .. نقف اذلاء فى أركان الحجرة ، خافضى الرءوس ، تتراقص على وجوهنا الشاحبة الضامرة أضواء المصباح الغازى المتهافتة . ونظل منتظرين ، وقلوبنا تدق ، وكل واحد منا يستعيد ماقاله فى الدقائق الفائتة .. هل تفوه بكلمات خارجة ؟! هل سخر من بعض مدرسى

المدرسة مثلا ؟؟ هل ورد على لسانه اسم فتاة ؟؟ كلها جرائم ذات عقاب صارم ، ولانتيجة وراءها سوى العذاب النفسى الرهيب .. وهكذا كانت صورة «نصيف» افندى مقترنة فى اذهاننا بصورة الجلاد الذى لايرحم ، على الرغم من أن قسوته تلك كانت تجد لها قبولا حسنا ، ورضاء تاما لدى أولياء امورنا ..

كانت حياتنا فى القرية حياة قذرة ، ونقاسى من سوء التغذية ، ومن الخوف من نصيف افندى ونفتقد حنان الأمهات والآباء ، ونتلهف على يومى الخميس والجمعة كى نفر الى قريتنا لنأكل ونلقى الأهل ونشعر بالامن والسعادة المؤقتة .. ولم يكن يشبه هذين اليومين سوى الفترة التى يسافر فيها نصيف افندى الى الصعيد بعيدا عنا .. ليزور أهله ، ويحضر معه كميات من السمن والجبن والدقيق .. كنا نعرف ذلك ، ونعرف انه لن يعود الى المدرسة الابتدائية الاهلية قبل أسبوع على الأقل ، وخلال هذا الأسبوع نتصرف كسكارى تحللوا من كل قيود ، أو كمجانين لاعقل لهم ، نغنى ونرقص ، ونقضى لياليا فى المسرح والحكايات والذكريات الشجية ، ونمتص عيدان القصب ، ونتبادل الزيارات ، ونهرع الى شوارع القرية وازقتها نتعرض للفتيات ، ونثير الشغب ، ولا نفتح كتابا ..

وهبط علينا نصيف افندى ذات مساء ، كنا لحسن الحظ نتحلق حول (طبلية) « خشبية » يتوسطها الصباح الفازى ، منهمكين فى الاستذكار ، وكل منا مستقل بدنياه التى تزحمها عشرات الآمال والآلام ، وعندما فتح الباب وبرز نصيف افندى ـ تنفسنا الصعداء وحمدنا الله .. انها احدى المرات النادرة التى لانضبط فيها متلبسين باللعب .. ومع ذلك فقد كانت قلوبنا تدق من خوف غامض ، لكنه شىء ملازم لطبيعتنا ، وتفحصنا الرجل بنظراته . : كنا نرتعش .. والصمت يزيد الموقف رهبه .. ونظراتنا قلقة كمجموعة من الفئران امام قط برى متوحش ، ولم نصدق آذاننا حينما سمعنا نصيف افندى يقول باسما : ـ

« ماذا تذاكرون ؟؟ »

ـ فانطلقنا فى صوت واحد نقول :

« الحساب ياسعادة البك »

« اتعترضكم صعوبة ما .. »

« ابدا ابدا .. سهل جدا ياسعادة البك .. »

ثم خطانصيف افندى داخل الحجرة والخيرزانه الملساء الثقيلة فى يمينه ، وعلى الرغم مناكنا نتراجع ونحاول انتختبىء فى الحائط .. بل كنا نتمنى ـ برغم اطمئناننا المؤقت ـ ان تبتلعنا الأرض ، او ترسل السماء اى انسان يستدعى نصيف افندى لأى أمر من الأمور ، حتى ولو أتى واحد وأخبره بان ابنه قد داسته عربة ـ لكنها مجرد امنيات طائرة لا تتحقق مطلقا .. فهاهو نصيف افندى يقف أمامنا ويردد كلمات هبطت علينا كالصاعقة :

ـ « ياأولاد .. أنا مبسوط منكم جدا .. لسبب بسيط وهو ان انكم

مؤدبون ومجتهدون فى دروسكم :واولاد ناس طيبين فى نفس الوقت .. وفى بيتى حجرة خالية .. كنت ابحث عمن يسكنها ، وانا لااسمح بتواجد اى انسان فى بيتى اللهم الانوع معين أرى فيه صفات خاصة .. لهذا قررت ان اختار منكم اربعة فقط ليسكنوا عندى .. وزاغت أبصارنا ، ودارت بنا الأرض ، كنا نرهبه ونحن بعيدون عنه تفصلنا حوارى وشوارع عدة ، وكان شبحه يلاحقنا فى قريتنا فى يومى الخميس والجمعة ، فيفسد علينا نومنا واحلامنا ، فكيف نستطيع أن نعيش تحت سقف بيته ، وفى حجرة لاتبعد سوى خطوات عن حجرته ، ونسمع صوته كل ساعة ، وكيف نفهم الدروس ونهضمها ، ونحن متأكدون انه الى جوارنا ؟! اذن سنعيش فى رعب قاتل مستمر ، ونقضى لياليا بلا سمر ولا ذكريات ، ومستحيل أن تجلجل ضحكاتنا ، أو نستقبل زوارا لدينا .. ان قرار انتقالنا الى بيته معناه كارثة كبرى لاتعادلها كارثة على وجه الأرض ، هكذا تصورنا .

وانفرجت ثغورنا عن ابتسامات ميتة لامعنى لها ، وحاولنا أن نبدى سعادتنا لهذا العطف السامى ، والتقدير الذى لم يحظ به احدغيرنا ، وكأنما أخذتنا المفاجأة فأصابنا البكم ولم نستطع أن نتكلم أو نعلق .

لم نجرب محادثته من قبل ، حتى مجرد كلمات الشكر والامتنان عجزنا عن التفوه بها ، لكن «نوفل» وهو اكبرنا سنا وجسما وصفاقة ، هتف بصوت متلعثم:

« انه لشرف كبير يا سعادة البيه »

وسعل نصيف افندى وهز رأسه فى رضا وكبرياء ثم قال :

ـ « انتم مثل أولادى وستكون يانوفل » أحد الأربعة ان شاء الله ـ انت ولد مؤدب »

وحال لون نوفل الى شحوب ظاهر ، وأخذت عيوننا تتسلل اليه خفية ، رأينا نوفل يرتبك وتصدر عنه ضحكات هستيرية قصيرة خفيفة ويتمتم ..

ـ « ربنا يعلى مراتبك ياسعادة البك » .

كان قلقنا متزايد عنيفا ، وبدا « نوفل » فى نظرنا أول الشهداء ، وشعرنا تجاهه بالأسى والعطف لقد تحدد مصير نوفل المسكين ، ترى من سيسقط بعده ؟ . ولم نستطرد فى مخاوفنا المرتقبة ، اذ هدر صوت نصيف أفندى وقد اكتسبت ملامحه بالجد والصرامة : ـ

ـ « لكن يجب أن تفهموا أن أى اخلال أو قلة أدب معناها الطرد من بيتى فورا ..

« انتم جميعا تعرفون من أنا ، وكرامتى فوق الجميع .. والخارج عن النظام أستطيع أن أدفنه حيا .. »

وعاد الصمت العاصف الرهيب من جديد ، وغمرنا العرق برغم برودة الجو ، ولم يعد يسمع سوى حشرجة أنفاسنا اللاهثة . وكان احساس غريب يراودنا بأن أيادى غليظة لا ترى تطبق على أعناقنا ، وتشتد قبضتها رويدا رويدا حتى أوشكنا على مايشبه الاختناق ، ثم عاد نصيف أفندى للحديث ثانية ، لكنه هذه المرة قد بعث بحديثه فى نفوسنا قطرات من أمل وسعادة .

ـ « سأسافر الى الصعيد غدا يا أولاد . وسأمكث هناك بضعة أيام.. وبعد أن أعود سأنفذ ماوعدتكم به .. واختياري لأربعة منكم أرجو ألا يغضب الباقين لو كان عندى متسع لأخذتكم جميعا .. ومع ذلك فقد أجد لهم أيضا مكانا فيما بعد .. أعرف أنكم تتمنون أن تسكنوا عندى كلكم.. لكن ماحيلتى والمكان ضيق ؟؟ » .

وأولانا نصيف أفندى ظهره وخرج ، وبقينا مسمرين كالتماثيل الحجرية ، واثر اللحظات العاصفة لم يزل يملأ قلوبنا ورءوسنا ، ويترنح نوفل ،وتختلج شفتاه ، ثم تطفر الدموع من عينيه ، وينهار باكيا ويقول وهو يشهق :

ـ « ملعون ابو المدارس وايامها السوداء .. لسوف اقتل نفسى .. الموت اهون .. وارتمينا على الحصير البارده فى اجهاد واسى ، وآمالنا فى الخلاص تبدو قميئة عاجزة عن أن تمس السحاب ، واليائس الشامل يلون نظرتنا للحياة والمستقبل ، ولا احد يستطيع ان يستشعر عذابنا سوى الله.. ونحن الذين نكتوى بنيران الخوف .. ومع مذاق الحياة المرير الذى كنا نقص به الا اننا حاولنا ان نخفف من حدته ، ونقبل الامر على علاته ، فليس فى مقصورنا أن نتمرد أو نثور . ولا يمكننا أن نصرح علانيه باننا أحرار ونسكن فى المكان الذى نريد ، ولو حدث وطالبنا بحريتنا فسيكون ذلك ضربا من الجنون قد يعرضنا لما هو أشد وأنكى ، وفى ليلة مطيره قارسة البرد ، كنا نتكمش فى حجرتنا الرطبه نمص القصب ونتحدث فى غير قليل من الاطمئنان.. فقد كان نصيف افندى فى الصعيد ، وكنا دون رقيب . وخرج « نوفل » عن صمته واكتئابه ، ثم وثب الى بسطة النافذه التى ترتفع من ارض الحجرة حوالى المتر ، وتناسى الى حين ما يضمره له المستقبل من أحزان قاتمة . يستشعرها دائما أولئك الرازحون تحت وطأة الذل والقهر .. وأخذنا ننتقل من حديث الى حديث ، ونثب من نادره الى أخرى ، ولم ندر كيف دخلنا فى موضوع النساء .. وكان هذا موضوعا يجيده « نوفل » ويتحدث عنه فى مهارة وحرارة .. أخذ يحدثنا عن « عوض الله » ابن بلدنا ذلك الرجل المفتون بماله وشبابه .. وكيف أن « عوض الله » أحب فتاة ليل فى المدينة ، وباع بسببها مايقرب من عشرة أفدنة.. وأخذ يصور بدقة ماكان يحدث ..

« تصوروا يا أولاد » كانت عشيقته كالجنية الساحرة .. كانت شقراء ذات خدود حمراء كالورد .. وأنفها .. آه .. كبلح الشام .. وشفتاها الغليظتان يكاد يتفجر منهما الدم .. لها عنق من المرمر .. وصدر ناهد تبارك الخلاق فيما خلق .. حتى أقدامها الصغيرة العارية كانت تذهب بعقل « عوض الله » و « تسكره » وصوتها ذو نبرات حنونة دافئة : كل شىء فيها كان يغرى بالاثم .. ويجلس معها عوض الله طول الليل دون خوف من أحد .. ويشربان الخمر ، ويأكلان الحمام والأرز والتفاح والموز ويغيبان عن الوجود ... » كانت قطرات المطر تتساقط فى الخارج ، وصدى سقوطها على الأبواب والنوافذ والارض الممتلئة بالبرك الصغيرة ، يتناهى الى أسماعنا واضحا عبر الصمت الممتد الذى لايمزقه

سوى عواء الريح من آن لآخر ..
وموجات من الحرارة الطارئة تسرى فى أجسادنا النحيلة ، ومائدة الطعام العامرة بالخمر وبكل الأكلات الشهية تسيل لعابنا .. وقصة عوض الله وفتاة الليل ، والتحلل من كل القيود تسيطر على أذهاننا تمام السيطرة ، ونوفل يجلس عاليا فى النافذة ، وكأنه فوق منصة ، وهو مستغرق كل الاستغراق فى قصته المثيرة الشيقة .. وهتفت فى استغراب :

ـ « لا شك أن الله سيدخلهما النار »

ورد نوفل قائلا ..

ـ « هذا أكيد .. لكنها متعة مابعدها متعة » .

ـ ولماذا لا يتزوجها مادام يعشقها الى هذا الحد ، ومادامت جميلة على هذه الصورة .

ـ « بنات الليل لا يتزوجون .. »

ـ « عجيبة !! » .

وعاد نوفل الى الحديث من جديد ، وأخذ يحلق بنا فى آفاق مذهلة تضطرم بالشهوة والعربدة والتحلل من خلق ودين ، وأخذ يرغى ويزبد فى وصف أفخاذها .. أفخاذها الملفوفة اللدنة التى .. والتى .. وازداد حماس « نوفل » فعرى ساقيه وأخذ يضرب عليهما ويشير بيديه وحاجبيه ، وكلنا آذان صاغية له ، وتعتمل فى قلوبنا أحاسيس متباينة ، تثيرفينا التقزز تارة والرغبة تارة أخرى ، لكن الأكيد هو أننا نشتهى تجربة « عوض الله » فى داخل نفوسنا ونعرض عنها لما وقر فى أذهاننا من سلوك وتقاليد .. وأدرك «نوفل» ما يصطرع فى نفوسنا فقال ..

ـ « كل الأغنياء يفعلون مثل عوض الله » الباشاوات والوزراء والملك أيضا كلهم ينعمون بمباهج الحياة »

فاندفعت قائلا :

ـ الغنى لعنه ، وكثرة المال تفسد الأخلاق .

وتمتم نوفل :

« ليس دائما »

ثم عاد الى الحديث عن عوض الله وعن بنات الليل فى المدينة وعن موائد الخمر والحمام والتفاح والموز ، والليل الساتر ، وجو العربدة والمجون ، والأفخاذ العارية والتأوهات وعالم الخطيئة والشياطين وانبعثت فى جوف الليل قهقهة عالية .

وكأنما أخرس « نوفل » فلم يعد يستطيع النطق بكلمة ، وتسمرنا فى أماكننا مذعورين وأحسسنا احساسا مؤلما بالبرد والخوف ، وعاد صوت فى الشارع يقول :

ـ «والله عال جدا يانوفل يامنجوس»

وهتفت دون وعى

ـ « نصيف أفندى »

وألقى نوفل بجسده من النافذة ، وسقط على وجهه فوق أرض الحجرة ، ثم نهض فى تثاقل والفزع يكاد يقتله ، ووضع سبابته فى فمه ، وأخذ يعض عليها فى ذعر وارتباك ، وتمتم :

ـ « ياللداهية الكبيرة » ماذا أتى به من الصعيد فى هذه الليلة المطيرة ؟؟ وكيف يمشى فى الأوحال والبرد ؟؟

وضرب نصيف أفندى خشب النافذة المغلقة بخيزرانته ضربات متتالية ، فارتعشت مفاصلنا ، وقال فى صوت جاف صارم :

ـ « ناموا ياكلاب ·· سأعرف كيف أربيكم غدا ·· ياتربية الأزقة والحوارى ·· تتكلمون عن النساء والدعارة !؟ مصيبة ! لم يبق غير هذا·· ناموا ياكلاب ·· ثم يانوفل ياأجرم ··»

كان صدى حذائه وهو يخوض الأوحال فى الخارج يلامس آذاننا كالصفعات القاسيةالتى تعودناها منه ، وران على قلوبنا هم ثقيل ، ليته دخل واشبعنا ضربا وصفعا كى نستريح · اننا ننتظر الغد المجهول: وأشباح الهول تعذبنا أكثر مما تعذبنا خيزرانته ··

وأفقنا الى نفوسنا بعد كف صدى خطواته عن بلوغ آذاننا ·· ووقف نوفل بيننا حائرا ·· لم يزل يعض على سبابته ، ووجهه كوجوه الموتى ·· وصرخ فجأة فى حدة :

ـ « لماذا تخافون ؟؟ »

قال أحدنا فى هدوء :

ـ « سل نفسك »

ـ « اسمعوا يا أولاد ··لماذا لا نهرب من المدرسة ، ونعود الى قريتنا نزرع الارض مع أهلينا ·· فى قريتنا الصغيرة لن يضربنا أحد ·· ولن نشعر بالخوف أبدا ·· سوف نشتغل ونزرع ونأكل وننام فى اطمئنان ·· »

كنا برغم الخوف الذى نعانيه لا نقر « نوفل » ـ وهو أكبرنا سنا ـ على آرائه ، مستحيل أن نعود الى القرية خائبين فاشلين ، بعد أن كبدنا أهلينا المصروفات والتضحيات والكتب والملابس الافرنجية ·· ومستحيل أن نخيب آمالهم فينا ·· وخاصة أننا سوف ننال شهادة الابتدائية بعد عام ، ويطلق سراحنا من قبضة نصيف أفندى ·· وقرأ نوفل فى عيوننا عدم الموافقة على كلامه ، كان وضعه فى الحقيقة يشبه وضعنا ، فلن يتركه أبوه يعود الى الحقل بل يريد ابنه موظفا كبيرا يلبس البدلة والطربوش ، وينال مرتبا محددا آخر كل شهر ·· اذن ليست هناك حيلة للخلاص الآن ·· فطأطأ نوفل رأسه ·· وأخذ يبكى ··

ولم ينم نوفل ليلتها · وفى الصباح المبكر · هب من فراشه كالمجنون وقال بصوت باك راعش :

ـ «سوف أرمى نفسى فى البحر ··»

ولم يعطنا فرصة للتفكير ، بل لبس حذاءه وبدلته وعزم على الرحيل قبل أن يدق الجرس ، ويأتى نصيف أفندى بخيزرانته ··

ـ « لكن الانتحار كفر يانوفل ·· »

قلتها فى رهبة ، فرد ثائرا :

ـ » سأذهب الى جهنم ولا أعيش مع نصيف أفندى ·· »

وتسللت خفية الى نصيف أفندى فى بيته ، وأخبرته بما اعتزمه نوفل ، فأتى الرجل مسرعا معى ، لكننا لم نجد نوفل ، كان قد غادر المسكن الى النهر القريب ، فجرى الرجل صوب النهر ، كان يلهث من شدة التعب ، رشاش الطين والماء القذر تلتصق بحذائه وجوربه وسرواله ·· وأخيرا بلغنا

نوفل ، وكان يقف على الشاطىء وحوله بعض الزملاء ، وعيناه محتقنتان من كثرة البكاء ، ووقعت عيناه على نصيف أفندى ، فأطبق عليه الرعب .. ماذا يفعل ؟؟ أيجرى هـــاربا ؟؟ سوف يلحق به ، أيتعذر ويعـــود الى المدرسة ؟؟ وهنـــاك العذاب الأليم ..

وقذف نوفل بنفسه فى الماء ، وصاح نصيف أفندى مرتاعا !

ـ امسكوه .. الولد سيغرق ..

وتجمهر عدد من الناس .. وجروا نوفل حيا الى الشاطىء ، وأخذه مبللا الى المدرسة ، وهو يكاد يموت من الخوف ، وفى عينيه نظرات جنون ذاهل ، وهمس نصيف افندى :

ـ « لماذا فعلت ذلك ؟؟ »

ولما لم يجب ، استأذن النـــاظر فى الانفراد به ، ثم ربت على كتفه فى رقة ، وابتسم له مداعبا وقال :

ـ « لا تخف .. لماذا فعلت ذلك ؟ »

ـ «ان نصيف افندى سيضربنى ..»

ـ « هل هـــذا كاف بأن يدفعـــك للانتحار ؟؟ »

ـ « أجـــل .. انى أتعـــذب .. أتعذب .. »

كانت المشكلة فى ذهن نوفل أكبر من الضرب ، كانت خليطا من الخوف ، والتشوق للانطلاق والحرية ، والخلاص من نظرات نصيف افندى الحديدية التى لا ترحم ، وأشياء كثيرة أخرى لايستطيع التعبير عنها ، وقال الناظر :

ـ « نصيف افندى لا يبغى ســـوى مصلحتك ومستقبلك .. »

ـ « انه يكرهنا ويريد قتلنا .. »

ـ « انت واهم .. »

ـ « ويريدنا أن نسكن معه فى بيت واحد .. تصـــور ياحضرة الناظر .. فى بيت واحد .. »

وابتسم الناظر وهمس :

ـ لا تقل هذا .. تستطيع أن تسكن فى المـــكان الذى تريده . وثـــق انى سأتوسط لك عند نصيف افندى ولن يضربك أو يســـكنك معه بعـــد ذلك « مبسوط » وانهمرت دموع نوفل وهو يقول :

ـ «ربنا يطول عمرك ياسعادة البك : لن أنتحر بعد ذلك .. »

ولم ندر مـــاذا حـــدث بين الناظر ونصيف افندى بعد ذلك ـ لكننا لم نعد نرى نصيف افندى يدهمنا فى المساء ، او يتلصص علينـــا خفيـــة ، أو يلهب ظهورنا بخيزرانته الملساء الثقيلة ، لأنه كان قد صدر أمر بنقله الى مدرســـة أخرى .

وعادت البسمة ترتســـم حقيقة على شفاهنا ..

وشـــعرنا بظل ثقيـــل ينزاح عن قلوبنا ..

ورجعنا الى الســـمر فى المســـاء والذكريات الشجية والحكايات المثيرة ..

وتنسمنا أريج الحرية الى حين .. لكن قـــرب الامتحان ، واشـــفاقنا من النتيجة التى ينتظرها أهلونا . كانت بمثابة قيد لايزول ـ لانها مسئولية ـ مسئوليتنا نحن الصـــغار الذين تتركز فيهم أكبر الآمال .